دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية (*)

مراجعة نوري عباس العلواني

إن اهتمام المؤلف في دراسة التطورات والتي شهدتها المدن العربية في حالتها التمدنية الحالية لابدّ أن يرجع إلى تراث الأمة العربية الإسلامية الحضاري، سواء في العراق أم في المدن العربية القديمة، لكي يكون هناك تواصل حضاري بين الماضي والحاضر والمستقبل.

لقد تناول المؤلف د. عبد الجبار ناجي في الباب الأول الاتجاهات الحديثة في دراسة المدن العربية الإسلامية، وفي الباب الثاني تناول: مفهوم العرب للمدينة (معنى المدينة ومقوماتها ومعاييرها في المصادر المختلفة).

(الدراسات المقارنة للتمدن العربي الإسلامي)

لقد تطرق المؤلف إلى المدن العربية والأوروبية لأنها جميعاً شهدت تطورات ومتغيّرات اقتصادية وعمرانية. وتأكيداً على ذلك جعل (توينبي) يطلق هذا التطور الحديث في كتابه الموسوم (المدن في حركة تطورها بـ «التفجر

(*) عبد الجبار ناجي: دراسة في تاريخ المدن العربية الإسلامية. بغداد ١٩٨٦.

التمدني» تشبيهاً بالتفجر السكاني). إن حقل الدراسات المقارنة للتمدن هو حقل حديث. لقد أسهم الباحثون الاجتماعيون الأوروبيون والأمريكان، وانقسموا في توجيهاتهم في هذه الدراسات المقارنة إلى اتجاهين:

أ ـ الاتجاه الذي يضع الجوانب الوصفية للمدن والظروف الخارجية كأساس لعقد المقارنة بين العقبات، ولم يتم التركيز على داخل المدن الحديثة لتشخيص الصعوبات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

ب ـ الاتجاه الذي يعنى بالدراسات البنيوية للتمدن والتركيز على العوامل البيئية والاجتماعية. ولقد اختار الأستاذ (آدمز Adams) منطقتين جغرافيتين: مجتمع وادي الرافدين خلال فترة ما قبل الميلاد، ومجتمع (المكسيك)، وقد أخضع للمقارنة، عينة تمدنية عربية قديمة وتمدن أمريكي من أجل العثور على عناصر التشابه والتوافق. ومن جانب آخر، أكد الباحث فوستال (Fostal) على أن العامل الديني يعد رابطاً بين السكان في أي مدينة. أما دراسة جانيت أبو لغد في دراستها للمدن (القاهرة، تونس والرباط) ابتدأت من العناصر المتشابهة في الخلفيات التاريخية والتباينات والاختلافات.

ما هي المدينة؟

حدّد الباحث الاجتماعي (هوزر Hauser) في تحديده شروط التمدنية، توافر الكثافة في حجم السكان والتقدم التكنولوجي ومدى الإمكانيات والسيطرة على الظروف الطبيعية وتطورها وتطور المؤسسات الإنتاجية والاقتصادية والسياسية.

ولكن (أشلي) الألماني أكد في تحديده وضع المدن العربية الإسلامية على المعايير التالية:

١ ـ توافر الأمن والاستقرار وهيمنة السلطة السياسية على النشاطات التجارية.

٢ ـ وجود حصن.

٣ ـ وجود قانون يشمل برعايته المصلحة العامة.

أما معايير ماكس ڤيبر فهي خمسة:

١ ـ أن يكون حصناً.
٢ ـ يتوافر سوق في المدينة.
٣ ـ تتوافر محكمة.
٤ ـ وجود نقابة.
٥ ـ أن تتمتع بحكم ذاتي.

موقف القدامى من المدينة:

لقد حدد المؤرخون والجغرافيون العرب المواطن التي أطلق عليها اصطلاحاً المدينة. فالجغرافي المقدسي وضع في كتابه الآراء المختلفة، الشرعية منها والتمدنية، بشأن هذا الموضوع، إذ يذكر أن المصر في رأي الفقهاء ويقصد به (كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحكمه أمير ويقوم بنفقته ويجمع (رستاقه)، ويبدي وجهة نظره معقباً على ذلك بأن المصر هو كل بلد يحكمه السلطان الأعظم ويجمع فيه الدواوين وتقلد منه الأعمال. أما ياقوت الحموي في تحديده العناصر والتي تكوّن المدينة حجم السكان وتوافر الكثافة السكانية، وجود المسجد الجامع والمنبر، توافر المياه الصالحة للشرب، إنتاج اقتصادي زراعي أو تجاري. أما ابن خلدون فيؤكد على أهم الخصائص التي تتوافر في المدينة (إعلم أن قراراً تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف) لابد من أن تتوافر عدة أمور منها: (١) دفع المضار، (٢) الاحتماء من الهجمات، (٣) جلب المنافع).

إن أهمية هذه المعايير في دراسة المدن العربية ترجع إلى روابط تاريخية واجتماعية وسياسية وقومية مشتركة تربط المدن العربية بعضها ببعض على عكس المدن الأوروبية؛ فقد ذكر الأستاذ ألبرت حوراني أن هناك مدناً عربية كانت مراكز تجارية تقع على الطرق البرية أو المرافىء النهرية عرفت بالمدن التجارية تعتمد على نقل البضائع لا على إنتاجها، وهناك مدن دينية أو إدارية. حاول

(أرنولد توينبي) المقارنة بين المدن الأوروبية والمدن العربية الإسلامية مشيراً إلى وجود المسجد الجامع من المباني في المؤسسات المدنية المهمة.

لقد تميزت الدراسات الاستشراقية الفرنسية باعتبارها أكثر الدراسات في حقل التمدن العربي:

١ ـ إنها ركزت على الجوانب الفكرية والاجتماعية من التراث العربي، وقد تأثرت فرنسا في حركة الانسكلوبيديين وحركة التنوير، زيادة على ذلك ما جاءت به الثورة الفرنسية من أفكار سياسية واقتصادية واجتماعية.

٢ ـ الاهتمام بدراسة المدن الإسلامية متأثراً بتطور المدن الفرنسية والإيطالية، فأسهمت باريس وجنوه والبندقية في فترة الانتعاش التجاري والاقتصادي لمنطقة البحر المتوسط.

٣ ـ ركزت على دور المؤسسات المدنية كالنقابات والأصناف أو البنوك داخل المدن العربية.

تعدُّد الاتجاهات والدراسات الأجنبية عن المدن العربية الإسلامية:

أ ـ الاتجاه الإيجابي المؤيد لمدينة عربية ذات كيان مستقل للمستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون) وجعلها على الشكل الآتي:

١ ـ تستند المدينة الإسلامية إلى أربعة عناصر، العنصر الأول: (المالي والصرف). العنصر الثاني: القيسارية، والثالث هو السوق، أما العنصر الرابع فوجود المدرسة أو الجامعة ملاصقة للجامع في المدينة.

٢ ـ الأصناف والنقابات التي تتوزع في المراكز والتجمعات السوقية.

بقيت أصداء الاتجاه الإيجابي عن وضع المدينة العربية الإسلامية. وقد تناولها مثلاً (موريس لومبار) وأشاد بالنتائج التمدنية التي جلبها الإسلام معتبراً إياها من أعظم التطورات المدنية، وأن التمدن الإسلامي يعد أكثر بعداً وتأثيراً من التمدن الروماني.

ب ـ **المعارض**: أفرزت دراسات المستشرقين موقفاً سلبياً:

١ ـ تجريد المدن العربية من أصالتها.
٢ ـ أنها مدن رومانية ويونانية من حيث العمر.
٣ ـ أنها مدن غير منظمة.

ومن هؤلاء المستشرقين (سوفاجيه وهنري وبلانول)، وجميع آراء هؤلاء لا تستند إلى الجانب العلمي وجميع آرائهم منقولة ومتطابقة ومقتبسة والرد عليها ببساطة. فيذكر الطبري (أن سعد بن أبي وقاص عندما صمم على بناء مدينة الكوفة ووضع خططها عيّن أبا الهياج بن مالك لهذا الأمر وزوّده بكتاب الخليفة عمر بن الخطاب والذي يحتوي على إرشادات وتخطيط الشوارع الرئيسية والفرعية وأنه أمر بالمنهاج وهي الطرق الرئيسية أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين وبالأزقّة سبعة أذرع وفي القطائع ستين ذراعاً إلا الذي لبني ضبة).

وأورد الماوردي نصاً حول تأسيس البصرة فقال: وقد مصّرت البصرة على عهد عمر فجعل عرض الشارع الأعظم ستين ذراعاً وجعلوا عرض ما سواها من الشوارع عشرين ذراعاً وجعلوا عرض الزقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيولهم وقبور موتاهم ولم يفعلوا ذلك إلا عن طريق رأي اتفقوا عليه ونص لا يجوز خلافه.

ج ـ دراسة المستشرقين في الجوانب الجديدة في المدن دراسة ماسينيون عن خطط الكوفة والبصرة وعن توزيع الخطط القبلية وتحديد عناصرها. والمستشرق (سوفاجيه) في دراسته عن مدينة حلب في الفترات السلجوقية والرومانية والإسلامية وقسمها تقسيماً سياسياً.

د ـ الاتجاه الرابع في الدراسات عن المدن العربية تبحث عن الحركات الشعبية في المدن الإسلامية لحركة العياريين والفتوة والأحداث والشجعان.

هـ ـ الدراسات الاجتماعية، حيث تركز تفسير الموت وفقاً لنظرية التمدن

الاجتماعي وتركيزهم على الأسس القبلية للبنية الاجتماعية للمدن، وقد وقعوا بالتناقضات بسبب ضيق نظرتهم.

نلاحظ عدم استقلالية حقل التمدن العربي الإسلامي وتداخله وتشابكه. فالأثري المتخصص في الآثار الإسلامية يجد في المدينة العربية نموذجاً لدراسة تخطيط المدينة، والجغرافي يخضعها للدراسة السكانية والاجتماعية. وهناك تداخل الجانب التاريخي والجغرافي.

أما **الاتجاه الثاني** للدراسة عن المدن العربية الإسلامية من اختصاص المؤرخين، دراسة د. صالح أحمد العلي التي تناولت التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة، إلا أن الاهتمام بالدراسات المقارنة للتمدن العربي في مراحلها الأولى لم تنل من اهتمام الباحثين العرب إلا قليلاً. ومن الدراسات الهامة دراسة د. ناجي معروف عن (عروبة المدن) حيث أبرز أصالة الفكر العربي في تخطيط المدن بأنواعها العسكرية والسياسية والاجتماعية والإدارية، وكذلك العوامل التي دفعت العرب إلى بناء المدن. ودراسة للسيد مصطفى الموسوي عن العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية.

المدينة في المعاجم اللغوية:

يرجع أصل كلمة مدينة في اللغة العربية إلى مدن. ومدن بالمكان أقام به. ومعنى مدّن المدائن أي مصرها.

وأورد الفيروزأبادي وابن منظور أن المدينة تعني (الحصن) على أن يبنى على أكمة من الأرض وتعدّ كل قطعة من الأرض يبنى فيها حصن في اصطمتها مدينة وأن المدينة تعادل الأمة من حيث المقومات.

أما الزبيدي فيرجع أصل المدينة إلى كلمة (دَيْن) لأنها تتضمن معنى التملك.

وجاء في الحديث النبوي (يا مالك الناس وديان العرب).

وأصل الكلمة كما ورد في المعاجم اللغوية والأحاديث الشريفة عربي وليس آرامياً وعبرياً.

فالمدينة ليست مكاناً دونما شروط، إنما هي المكان الذي تقام فيه الحدود وجذرها اللغوي (ديْن) يرتبط بمسألة العدالة والقضاة والقانون ومن هنا، فإن العرب قد سبقوا (ماكس ڤيبر) في هذه الخصائص.

المدينة في القرآن الكريم:

المفهوم التمدني لكلمة مدينة أو قرية في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الكهف ﴿فانطلقا حتى أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يُضيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه. قال: لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجْراً﴾.

المدينة في الحديث الشريف:

قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يحاصروا المدينة حتى يكون أبعد مساحلهم سلاح». ويقول ﷺ: «سنفتح عليكم الأمصار وستكون جنود مجندة تقطع عليكم فيها بعوث». وقال ﷺ: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر». وإن تشخيص المقدسي للمدينة متشابه مع الخصائص التي حددها الفقهاء.

خصائص المدينة العربية الإسلامية

مفهوم الفقهاء المسلمين في المدينة والمستلزمات الضرورية في المكان الذي يرتفع إلى مرتبة المدينة والمستلزمات هي (القضاء، القانون، والشريعة) والاستقلال المالي والاقتصادي مثلاً.

يصف المقدسي (الفسطاط) بأنه مركز إداري تجتمع فيه الدواوين:

١ ـ الرخاء الاقتصادي،

٢ ـ رخاء الأسواق،

٣ ـ كثرة الحمامات،

٤ ـ الشهرة العلمية.

وذكر ياقوت الحموي أيضاً وصفاً للمدينة بأنها قصبة تقع بالقرب من بلخ تدعى **الأنبار** فقال عنها (وهي قصبة ناحية جوزجان) وفيها مقام السلطان وهي أكبر من (مرو الروذ) ولها مياه وكروم وبساتين وبناؤها من طين، والتركيز على:

١ ـ مساحة المدينة.
٢ ـ محل إقامة السلطان.
٣ ـ توافر المياه.
٤ ـ البناء بالطين.

ويذكر المقدسي الصفات التي من أجلها صارت صحار قصبة عُمان فيقول:

١ ـ المساحة وأنها أجل من **زبيد وصنعاء**.
٢ ـ المسجد الجامع.
٣ ـ موقعها الاستراتيجي التجاري.
٤ ـ توافر الأسواق العجيبة والتي تضم السلع.
٥ ـ توافر المياه.
٦ ـ بناء الدور من الآجر.
٧ ـ المناخ الملائم.

ويقول ياقوت الحموي إن (البليد عبارة عن مدينة صغيرة) ووصف بلدة نهر الدير بالبصرة بتعبير **البلد أو البلدة**، ويشير إلى مفهوم المدينة التي ليست صغيرة الحجم مدينة واسط يقول عنها ياقوت الحموي: (بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين، وكان الرخص موجوداً فيها).

ركز الجغرافيون في تصنيف خصائص المدن العربية الإسلامية على ثلاثة خطوط هي:

(١) التركيز على الخصائص المطلوبة في المدن الساحلية أو مدن الأسواق التجارية بما فيها مدن الموانىء والمرافىء أو المدينة الفرضية تتمثل بالخصائص التجارية والتسهيلات الملاحية للسفن التجارية من كثرة الأسواق والفنادق

والحمامات والمسجد الجامع والمياه.

(٢) أكد الجغرافيون في خصائص المدينة بوجود المسجد الجامع والكثافة السكانية وتوافر السوق ووفرة الإنتاج الصناعي والزراعي.

(٣) لابد أن تتوافر في المدن والتي تميز مدن الحصون خصائص السور الحصين متين البناء وإبراز دور القلعة وفوائدها للمدينة.

المنبر وأهميته في خصائص المدينة:

لم يتحدد وجود المنبر في المدينة وإنما في القرى الصغيرة والكبيرة أيضاً. ويمكن إضافته إلى خصائص القرية أو القصبة الكبيرة. لقد وجد المنبر خلال الفترة الإسلامية المبكرة كتعبير واضح للموضع، والمكان يكون في مدينة تمثل وحدة إدارية ويكون أساساً في تركيب المدينة.

تحديد الجغرافيين للقرية:

ميّز الجغرافيون العرب بين تعبيرات المدينة أو البلدة من جهة، والقرية من جهة اخرى، وفقاً لحجومها واعتمدوا أيضاً على أسس واضحة تميزهم للقرية، وإن معيار الجامع والمنبر يعدان من المعايير الهامة في أوصاف تلك القرى في الوقت ذاته. وقد صارا ثانويين في أوصاف القرى الشبيهة بالمدن إلى الأهمية بحجم القرية لكثافة سكانها وتطور مواردها الزراعية.

هناك مستلزمات ركّز عليها العرب في تأسيس المدن والأمصار، هي:

١ ـ المستلزمات والمتطلبات العسكرية: لقد اتخذ العرب المشاركون في عمليات التحرير العربي الفتوحات الإسلامية ضد الساسانيين الفرس من جهة الشرق، وضد البيزنطيين من الجهة الشمالية والغربية، عدة مراكز عسكرية عبارة عن مخيمات ومحلات لإقامة وإمداد الجيوش العربية أثناء القتال وسميت الأمصار، وهي مراكز مستقرة (المدينة، الشام ومصر والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة)، وأن الخليفة عمر بن الخطاب توجهت اهتماماته العسكرية نحو البصرة. وذلك نتيجة العمليات العسكرية. وجه عتبة بن غزوان إلى هذه

المنطقة (سر الى ناحية البصرة وأشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد اخوانهم على إخوانك) وتظهر المستلزمات والمتطلبات العسكرية نفسها والتي ساعدت على تأسيس البصرة والكوفة لاختيار وتأسيس مدينة الفسطاط والقيروان.

٢ ـ المستلزمات الاقتصادية والتجارية: أدرك العرب ان وظيفة المدن لم تكن عسكرية فقط. فقد تأثرت بالعوامل الاقتصادية والتجارية.

ويحدد الجاحظ بغداد والبصرة والفسطاط فيقول: الصناعة بالبصرة والخير ببغداد والتجارة بمصر وتصنف المدن إلى عدة أصناف:

(١) المدن التي تتوافر فيها المستلزمات الجغرافية أي الموقع الجغرافي مثل مدينة بغداد.

(٢) المدن التي تتوافر فيها المستلزمات الاقتصادية مثل مدينة سفاقس في شمال افريقيا ومدينة صعدة في اليمن وفيها سوق للتجار يقصدونها لابتياع الجلود والأحذية.

(٣) ومدن وظيفتها بكونها مدينة مرفأ برزت فيها عدد من المتطلبات التجارية وموقعها الجغرافي مثلاً فالجار وجدّة مدينتان تقعان على البحر الأحمر.

(٤) وصنف آخر من المدن التجارية التي تتوافر فيها مستلزمات إقتصادية والتي دخلت فيها بعض صناعاتها وإنتاجاتها في التبادل التجاري، ومن هذه المدن البصرة ونيسابور.

موقف الجغرافيين من التبدلات في أحوال المدن

إن الجغرافيين العرب كانوا يشخّصون العوامل التي ساعدت على تغيير أحوال المدن، ومن بين هذه العوامل العامل السياسي المتمثل باضطراب المدينة الداخلية أو بعض الخلفاء العباسيين وسيطرة البويهيين الديالمة على العاصمة وما حل بالمدينة من محن سياسية واجتماعية كانت من أسباب هجرة الأهالي من